

الإشكالية المعرفية
قضايا الميتافيزيقا عند التجريبيين.
المحاضرة الرابعة:

تمهيد: يبدو أن الاتجاه التجريبي هو أكثر الاتجاهات انسجاماً واتساقاً والمبادئ التي تأسس عليها، فهناك اتفاق بين مؤسسي هذا الاتجاه في المرحلة الكلاسيكية على جملة من المبادئ كما قلنا، وأهمها على الإطلاق، أن المعرفة كلها تعود إلى التجربة، سواء كانت التجربة داخلية، أو ما تعرف بالتأمل، أو خارجية تتمثل في الإحساس . فكل معارفنا بدون استثناء - حسب "جون لوك"- تأتي من التجربة، وموضوعات الإحساس وموضوعات التأمل هي الأصول الوحيدة التي تنشأ منها كل أفكارنا... كما أن القدرة على تكوين أفكار مجردة بنظر "جورج باركلي"، لا يقوم على أي أساس، بل إن كل مواد المعرفة البشرية تتألف من أفكار الإحساس والتأمل فقط. أما "ديفيد هيوم"، فيرى أن موضوعات الفهم البشري تعود كلها إلى الانطباعات والأفكار. وما أفكارنا في الأخير إلا نسخاً من انطباعات سابقة. هكذا تُرد جميع معارفنا إلى الحس والتجربة، ولا مكان للأفكار الميتافيزيقية وفق هذا الاتجاه. لكن بالنظر إلى بعض قضايا الميتافيزيقا وأهمها قضية الجوهر يبدو لنا هذا الاعتقاد محل نظر، فكيف يتم قبول مثل هذه القضية والأسس التي اتفق عليها التجريبيون؟!

لوك و الإقرار بالجوهر في صورتيه المادية والروحية:

يهاجم "لوك" مذهب الأفكار الفطرية الذي يدعي فيه أصحابه « أن في العقل بعض المبادئ الفطرية، بعض المفاهيم الأولية، الحروف، كما لو أنها طبعت على عقل الإنسان منذ أن وجد وجاء بها إلى العالم». و يقصد "لوك" بهجومه هذا- رغم أنه، لا يذكر دائماً أسماء خصومه، ماعدا (Lord Of Churbury) - المدرسة العقلية بصورة خاصة، و أيضاً المدرسة الأفلاطونية الحديثة في "كامبريدج"، و نقد "لوك" للأفكار الفطرية، ينقسم إلى مستويين مستوى يتعلق بالأفكار الفطرية النظرية، ومستوى يتعلق بالأفكار العملية: 1 - مبادئ فطرية نظرية، و التي تعني القضايا المنطقية الواضحة بذاتها كقانون الهوية ومبدأ عدم التناقض، و يمكن إجمال مناقشة "لوك" لهذه المبادئ كالاتي: أن بإمكان الناس فقط استخدام قدراتهم الطبيعية أن يحصلوا على كل المعرفة التي يملكون، دون أي مساعدة أو حاجة إلى مثل هذه الانطباعات الفطرية.

- أما فيما يتعلق بحجية الإجماع و الاتفاق الحاصل عليها من كلّ الناس لتبرير صدق هذه المبادئ النظرية عند أنصار المذهب الفطري، فـ"لوك" يرد على هذا، في كون الإجماع و الاتفاق لا يعدّ دليلاً على صدق و فطرية هذه المبادئ، و مسألة الإجماع غير متحققة على المبادئ النظرية كقانون الهوية، إذ لا يوجد إجماع عام على صدقها، « فالأطفال والبله (البلهاء) لا يملكون أي فهم أو تفكير فيها، و هذا يحطم مسألة الإجماع» .

- ولو كانت في العقل منذ الولادة لأدركها الإنسان. هذا فيما يخص نقد "لوك" للمبادئ النظرية.

2 - أما المبادئ العملية و التي تتعلق بالمبادئ الأخلاقية العملية وأيضاً بالمعتقد الديني، فنقد "لوك" ينصب على تباين الآراء و اختلاف المجتمعات من عصر لآخر، و لو كانت فطرية لكانت محل اتفاق. هذا الاتفاق ينعدم في الأفكار الواضحة النظرية فما بالك في المبادئ العملية؛ فأقوى هذه المبادئ، وجود "الله"، لكننا نجد اختلافاً بيناً بين الناس، و نجد أقواماً لا يؤمنون بـ"الله". فإذا كانت المبادئ النظرية لم يوجد حولها اتفاق عام من طرف كلّ الناس كما رأينا، فإنّ القواعد الأخلاقية تكون أكثر صعوبة في إيجاد الاتفاق حولها مثل مبدأ الهوية.

- و هجوم "لوك" هنا لا يستثني الأفكار الفطرية سواء التي هي موجودة، بنظر البعض، بالقوة أي على شكل هيئة أو إمكان و التجربة ضرورية لتحصيل ذلك، أو التي اعتبرت موجودة بالفعل. و بعد هذا الهجوم على مذهب الأفكار الفطرية بنوعها النظرية و العملية، و الذي يمثل الجانب السلبي في نظرية المعرفة عند "لوك"، يشرع في بيان الجانب البنائي، و من ثمة تساءل عن مصدر أفكارنا، و كيفية الحصول عليها. و كيف توظف هذه الأفكار لإنتاج المعرفة.

التجربة أساس الأفكار: يقول "لوك": «دعنا نفترض إذن، أنّ العقل صفحة بيضاء، خال من كلّ الحروف و الرموز، و بدون أي أفكار، فمن أين تأتت؟... و من أين حصل على كلّ مواد التفكير و المعرفة؟. و لهذا أجب بكلمة واحدة، من التجربة (Experience)، ففيها تقوم كلّ معرفتنا و ملاحظتنا، سواء انصبت على الموضوعات الخارجية الحسية، أو انصبت على عمليات العقل الداخلية التي ندركها و نتأملها، هي التي تزود أذهاننا بكلّ مواد التفكير: هذان هما المصدران الوحيدان للمعرفة، و منهما نحصل على كلّ أفكارنا»⁰، و من هذا النص يمكننا أن نلاحظ و نستنتج مصدرين للمعرفة عند "لوك": **موضوع الإحساس:** و هو المصدر الأول و الأساسي لكثير من الأفكار التي يملكها الإنسان، فعندما تتأثر حواسنا بالموضوعات الخارجية، ينقل هذا التأثير إلى الذهن على شكل إدراكات متميّزة للأشياء، فيتكون لدينا أفكار الإحساس كالأفكار المتعلقة باللون بالذوق... الخ.

■ أما المصدر الثاني لأفكارنا فهو **موضوع التأمل**، و هو الذي يزود العقل بمجموعة من الأفكار، عندما يتأمل عملياته الداخلية من تفكير، إرادة و شك... و هكذا، فمصدر جميع أفكارنا، إمّا التجربة الخارجية، أو التجربة الداخلية، يقول "لوك": «... هذان المصدران، أقول، الأشياء الخارجية المادية كموضوعات الإحساس، و العمليات الداخلية العقلية كموضوعات التأمل، هما بالنسبة لي الأصول الوحيدة التي تنشأ منهما كلّ أفكارنا».

و الأفكار التي نحصل عليها من هذين المصدرين، هي ما تعرف بالأفكار البسيطة، حيث يكون العقل سلبياً و متلقياً و غير فعّال، إذ لا يلعب أي دور في إيجادها من جهة، و من جهة أخرى تمثل هذه الأفكار الوحدة الأساسية لكلّ معارفنا.

و عند حصول العقل على هذه الأفكار، يوظفها كمواد أولية لإنتاج أفكار جديدة، وهنا فقط يظهر الدور الفعال و الإيجابي للعقل، أي تكون له القدرة على إيجاد أفكار جديدة. يسميها "لوك" بالأفكار المركبة.

الجوهر عند لوك: ارتبط المفهوم بالمدرسة الميتافيزيقية العقلية الديكارتية، كان "لوك" مقلداً في تعريفه للجوهر من حيث المبدأ. يعرفه مرة «أنه الموضوع الذي توجد فيه الكيفيات البسيطة و منه تنشأ»، و مرة يعرفه بقوله: «الحامل للكيفيات، أو ما يعرف بالأعراض، أو الموضوع الذي تقوم فيه الصفات». يؤكد "لوك" أننا لا نختبر فكرة الجوهر بصورة مباشرة، ولن نحصل عليها مباشرة من الإحساس أو التأمل. فمن أين حصلنا عليها و ما مصدرها؟ يحاول "لوك" اختبار الفكرة من خلال مناقشتها فقط. و منحاه في مناقشته للجوهر يأخذ وضعاً غريباً. لمّا كان "لوك" تجريبياً، فإنّ فكرة الجوهر تبدو لأول وهلة ليس أكثر من كونها و همّاً. فكرة الجوهر هي لا شيء، هذا ما اكتشفه "لوك"، إنّها فقط افتراض لا نعرف ما هو.

وبهذا، فالجوهر معطى غير تجريبي، أي أنه غير مؤسس تجريبياً. لكن لماذا يفترض هذا الشيء المجهول، الذي

هو الجوهر؟

إذا كانت الكيفيات الثانوية كما مرّ بنا، كاللون والذوق والرائحة، بنظر "لوك"، تُنسب إلى الصفات الأولية، لأنّها، في الأخير، مجرد قوى في الأجسام لها القدرة على إحداث إحساس فينا بهذه الكيفيات، وإذا كنّا لا نتصور الكيفيات الأولية كالامتداد والصلابة قائمة بذاتها، ولا نتصورها بدون شيء يحملها أو يسندها، ولذلك نتصورها موجودة في، أو مرتكزة على موضوع عام، هذا الموضوع أو الحامل للصفات هو الذي يطلق عليه عادة اسم الجوهر والذي يعني (الواقف تحت)، أو الحامل

« إذا أراد أي شخص أن يختبر ذاته فيما يخص تصوره للجوهر المحض على العموم، فإنّه سيجد أنّه لا يملك أي فكرة أخرى على الإطلاق. لكن فقط افتراض نجهل ما هو.. الفكرة العامة للجوهر هي شيء نجهل ما هو، إنها فكرة غير واضحة تماماً وغير متميزة، وأيضا لم نحصل عليها عن طريق الإحساس أو التأمل، أو بضم الكيفيات لبعضها، أو بضم الأفكار المصاحبة لها. القول بأن الجوهر فكرة مؤسّسة على عادة الافتراض، أو التسليم بوجوده كمقوم للكيفيات لا يعني أنه غير مبرر لعدم إدراكنا لوجود هذا الشيء المقوم، بل أنه استنتاج مبرر. فمادما لا نتصور الكيفيات قائمة بذاتها، فإننا نفترض هذا الحامل أي الجوهر رغم أنّنا لا نملك عنه فكرة واضحة وتمتيزة. إذن مادما نسلم بفكرة بسيطة ما، وما دمنا نسلم بوجود كيفية محسوسة ما، فليس لنا أن ننفي الجوهر. وغموض فكرة الجوهر عند "لوك" لا ينقص من قيمتها شيئا، حتى وإن كانت لا تتفق ومبادئه التجريبية. إذن، يقول لوك بالجوهر في صورته المادية والروحية. وهكذا يبدأ "لوك" من مقدمات ابستمولوجية تتعلق بالمعرفة ومصدرها وحدودها و يقينياتها، لينتهي إلى أفكار ميتافيزيقية من قبيل فكرة الجوهر المادي، ممّا يترتب عن هذا نتائج خطيرة تدحض انسجام النسق الفكري الذي بناه كله.

المحاضرة الخامسة

باركلي ورفضه للجوهر المادي.

يحاول باركلي أن يخلص التجريبية كما أسسها لوك من قضايا لا تتفق ومبادئها، فالقول بوجود جوهر مادي يؤدي بنظره إلى إقرار بوجود مستقل مادي، وهذا له نتائج وخيمة على المعرفة والدين معاً. وقبل الولوج لفلسفته اللامادية يطرح مسألتين هامتين الأولى قصور اللغة، والثانية تتعلق بالأفكار المجردة. فما موقفه من وجود الجوهر المادي وهل تخلص من صورة الجوهر في الفلسفة التجريبية؟

موضوع المعرفة: لا يختلف موقف "باركلي" كثيراً عن "لوك" فيما يتعلق بمكانة الفكرة في المعرفة واستعمالها. الفكرة هي الموضوع الرئيسي للمعرفة البشرية، وجميع ما نعرفه مصدره الأفكار التي حصلنا عليها عن طريق التجربة «.. كل المعرفة تتعلق بالأفكار [...] وكل أفكارنا هي إما بسيطة، أو مكونة من أفكار بسيطة» مستبعداً بذلك الأفكار الفطرية في القسم الأول من المبادئ.

يحدد "باركلي" أصناف الأفكار التي تشكل موضوعاً للمعرفة فيقول: «إنه من الواضح لكل من قام بفحص موضوعات المعرفة البشرية أنها: إما أن تكون أفكاراً انطبعت بالفعل على الحواس، أو أيضاً تلك التي تكون مدركة بواسطة تأمل العقل لعملياته الداخلية وما ينتابه من مشاعر، أو أخيراً الأفكار التي تكونت بمساعدة الذاكرة والخيال...» **وجود الأشياء يكمن في إدراكها:** قرر "باركلي" منذ الكتابات الأولى موقفه بصراحة عندما اعتبر أن الأشياء الحسية هي أفكار، أو مجموعة أفكار. «نرى المنزل ذاته والكنيسة ذاتها، يقول "باركلي"، إنهما فكرة، أي موضوع،

وموضوع فوري للتفكير». وبهذا ينظر إلى الموضوع الفيزيائي الحسي على أنه مجموعة كيفيات التي يمكن ملاحظتها فيه وحسب بواسطة الحواس. وإذا كانت هذه الكيفيات تعتمد في وجودها على إدراك العقل لها، فإن وجود هذه الموضوعات يعتمد على العقل لها، أي لا وجود لها خارج العقل، فهي إما أن تكون مدركة، أو تكون قابلة للإدراك. يقول "باركلي": «الطاولة التي أكتب عليها، أقول أنها توجد، هذا يعني أنني أراها وأحسها، ولو كنت خارج غرفة الدراسة، فإني أقول أنها موجودة، ذلك لو كنت هناك فإني أدركها، أو أن هناك روحاً أخرى تدركها بالفعل، ولو قلت أن هناك رائحة هذا يعني أنها شمت؛ أو أن هناك صوتاً قد سمع؛ أو أن هناك شكلاً أو لوناً معيناً يعي أن أحداً قد أدركه ببصره أو بلمسه. هذا ما أستطيع أن أفهمه من خلال هذه التعبيرات وغيرها»؛ فالأشياء التي نعرفها مثل الخشب، والأحجار، والحديد وغيرها لم أدركها إلا بواسطة الحواس، والمدركة بواسطة الحواس هي مدركة بصورة فورية، و«الأشياء المدركة بصورة فورية هي أفكار؛ والأفكار لا توجد بدون العقل، ووجودها إذن يكمن في كونها مدركة»، وعلى هذا الأساس، يعتقد "باركلي" أن جميع الأجسام المكونة للعالم المادي لا وجود لها دون عقل يدركها، فوجودها قائم في إدراكها. خطأ "لوك" بالنسبة لـ"باركلي" يكمن في تسليمه بشيء ما هو لا يوجد حقيقة على الإطلاق، هذا الشيء المسلم به هو الجوهر المادي الخارجي. وما قام به إذن، هو ببساطة رفض وجود أي شيء خارج العقل وأفكاره.

رفض وجود المادة أو الجوهر المادي: اعتبار الأشياء الحسية أفكار يعدّ مقدمة لرفض الجوهر المادي يقول "باركلي": «أنا لا أستبعد كل الجواهر. ولا أحبّ أن أتهم بنبذ الجوهر بعيداً عن العالم المعقول. أرفض فقط المعنى الفلسفي (الذي هو في الحقيقة بدون معنى) للفظ الجوهر. أسأل أي شخص لم يفسد [عقله بعد] برطانتهم عن المقصود بالجوهر المادي أو جوهر الجسم. سيجيب: الصلابة، والحجم وسائر الكيفيات الأولية».

يرى الماديون أنه يمكن إثبات وجود المادة عن طريق الاستدلال، ويتضمن هذا الموقف مجموعة رؤى مختلفة مفترضة لطبيعة المادة كحقيقة مستنتجة ذكرها "باركلي" في المبادئ، وفي المحاورات على لسان هلاس تحت مسميات متعددة منها:

أ- هي تماثل الأفكار. ب- علة الأفكار. ج- أداة أو مناسبة للأفكار. د- لأنها مسلمة لشيء مجهول لكنه ضروري. هـ - حامل مفترض للكيفيات الأولية.

يرفض باركلي جملة وتفصيلاً كل هذه المبررات لوجود المادة وأعمالها كلها ردود عن هذا، ويمكننا أن نحصر كل الاحتمالات المتعلقة بوجود المادة من عدمها، التي ناقشها "باركلي" بقياس إحراج منفصل ومتسلسل؛ فهو يؤكد أنه إذا كانت المادة موجودة: فإما أن تكون معروفة، أو غير معروفة، فإذا كانت غير معروفة قطعاً، فلا ضرورة للتسليم بها، ونأخذها بأمان على أنها غير موجودة. أمّا إذا كانت المادة من جانب آخر معروفة، فإنها تقع تحت واحدة من التصورات السابقة (علة، الأداة، المناسبة، الشيء المجهول)، لكن كل النظريات التي تبنت التصورات السابقة تم دحضها، وبهذا يكون نقده كان شاملاً وتاماً وصل من خلاله إلى الخلاصة التي لا تقبل النقض أو الدحض وهي: المادة غير موجودة. والجوهر المادي مجرد افتراض غير مبرر وغير صحيح ومتعذر الدفاع عنه. هل يعني أنه استبعد مفهوم الجوهر؟ بالطبع لا. في الأخير يقر بوجود جواهر روحية أو بالعلة الإلهية. ويبقى الإشكال قائماً في الفلسفة التجريبية وهذا ما يحاول هيوم تجاوزه.

المحاضرة السادسة

هيوم والتجريبية الحسية الصرفية

الأسس الايبستيمولوجية: يفدّم الأساس القاعدي الأول لنظامه الفلسفي هناك، والمتمثل في: « أن جميع أفكارنا مشتقة من انطباعات حسية سابقة عنها»، أما في الجزء الثالث من نفس الكتاب فيقدم الأساس الثاني المتمثل في "مبدأ السببية". في حين تظهر هذه الأسس على التوالي في كتاب "مبحث في الفهم البشري" مرتبة في القسم الثاني والقسم السابع على التوالي، وأهم مبادئه الايبستيمولوجية:

حلل "هيوم" حالات الوعي إلى عناصرها الأولية وجد أنّ العقل هو مجرد إدراكات متتابعة، و هي تنحلّ إلى الانطباعات والأفكار. يقول "هيوم": « كل إدراكات العقل البشري تنحل إلى نوعين متميزين، والذي سأطلق عليهما لفظي انطباعات وأفكار»، يقول: «أنه بإمكاننا إذن، أن نقسّم إدراكات الذهن إلى صنفين يتميزان باختلاف درجة القوة والحيوية.. فالنوع الأول هو أقل قوة وأقل حيوية تسمى عادة أفكاراً، أما النوع الثاني فيعتقد "هيوم" أن هذا النوع يفتقر إلى اسم في اللغات الأجنبية، بما فيها اللغة الإنجليزية، ويعطيها اسم الانطباعات. هل الانطباعات تشتق من الأفكار أم العكس؟ وأيهما مصدر للآخر؟ يخلص في نهاية القسم الأول من "الرسالة في الطبيعة البشرية" إلى تقرير أن أسبقية الانطباعات على الأفكار هو «أول مبدأ من مبادئ الطبيعة البشرية»، كما يخلص إلى قضية عامة وهي: «أن كل الأفكار البسيطة في أول ظهورها هي مشتقة من انطباعات بسيطة التي تلازمها»

تكمن أهمية هذا المبدأ الأول في الطبيعة البشرية، أي أسبقية الانطباعات على الأفكار عند "هيوم"، من اختبار جميع القضايا الفلسفية الميتافيزيقية التي تحفل بها الفلاسفة السابقة عن التجريبية، بما فيها فكرة الجوهر. أما المبدأ الثاني فيخص السببية والإشكال من أي مصدر يُشتق هذا المبدأ؟ يخلص هيوم إلى أنها ليست قضية تجريبية بل تعود إلى مجرد اعتقاد نتيجة حدوث التكرار..

فكرة الجوهر: فكرة الجوهر كمشكلة ميتافيزيقية جزئية في صميمها حلّها لن يكون سوى تطبيق لمبادئه

الايبستيمولوجية التي عرضناها سابقاً، ومنه نتساءل ما مصدر هذه الفكرة؟ هل تعود إلى انطباع ما؟ في تحليلات هيوم يرفض أن يوجد انطباع حسي أو تأملي لهذه الفكرة، وجميع قضايا الميتافيزيقا، لقد وف نفس المعول الذي هدم به باركلي الجوهر المادي لتهديم الجوهر الروحي أيضاً.

يخلص "هيوم" إلى عبارة شهيرة في نهاية كتابه "الفهم البشري": «إذا تصفحنا مكتبائنا، مقتنعين بمبادئنا، فماذا يمكن أن تحدثه (هذه المبادئ) ... ما أكثر ما نلقيه من كتب في النار؛ إذا تناولنا أي كتاب، كتاباً في اللاهوت، أو في الميتافيزيقا المدرسية مثلاً. هيّا نسال؛ هل يحوي استدلالاً مجرداً يتعلق بالكم والعدد؟ لا. هل يحوي استدلالاً تجريبياً يتعلق بأمور الواقع، والوجود المحسوس؟ لا. اذفه إذن في النار. لأنه لا يحوي سوى السفسطة والوهم.» لقد شعر "هيوم" بهذه النهاية المفزعة، وكان صريحاً جداً في "الموجز" الذي وضعه لكتابه "الطبيعة البشرية"، فكتب بلغة صريحة جداً: «...سيدرك القارئ بسهولة أنّ الفلسفة التي تضمّنها هذا الكتاب هي شكية جداً، وتميل إلى إعطائنا تصوراً عن النقائص والحدود الضيقة للفهم البشري" وستظل إشكالية القضايا الميتافيزيقية في ظل المبادئ التجريبية قائمة .

بعض مصادر ومراجع الإشكالية:

- Aaron. R., **John Locke**, 2nd ed. Oxford press.1955
- Alexander .S. **Locke**. London Archibald Constable & Co.Ltd., 1908.
- Berkeley (George), **The Principles of Human Knowledge**, Intro. №:3, Chicago. The Open Court publishing Company ,London ,1910.
- Berkeley (George), **Three Dialogues between Hylas and Philonous**, Chicago. The Open Court publishing Company, London, 1906.
- Berkeley (George). **Commonplace Book**, Fraser.A.C, (ed). **The Works of George Berkeley, Including His Posthumous Works**.V:1., Oxford, at the Clarendon Press., mdcccci.
- Hume (David) .**An Abstract of A treatise of H.N.**in Yalden-Thomson, D.C, (ed), Hume theory of Knowledge. Thomas Nelson and Sons LTD .1951.
- Hume (David) , **A Treatise of Human Nature**, A.Selby- Bigge, M.A Oxford. At the Clarendon presses.
- Hume (David), **An Enquiry Concerning Human Understanding**, The open court publishing company, chicago.Illinois.1958.
- Locke (John) .**An Essay concerning Human Understanding**. George Rout ledge and sons limited .New-York .London and c0.